التربية القرآنية

إن القرآن الكريم وهو يعمل على تنقية البيئة وطهارتها من كلِّ سلوكٍ ضال، ويمدها بالآداب والفضائل التي تصونها وتحفظها، يربط المؤمن بواجبات وتبعات لا تدع مجالاً للفراغ المهلك والعبث الضال.

وإذا كنا قد مضينا مع أسلوب التربية في الإسلام، ورأينا كيف يعمل على تهيئة التربة وانتقاء البذرة والجو الصالح لاستقبال وَليدٍ يُنَشَّأ تنشئةً إسلامية صحيحة.

فلنمض مع القرآن لنأخذ قَبَساً من نوره نرى على ضوئه أسلوب التربية الحكيم الذي يحقق أبرَّ الصفاتِ وأكرمَ الغايات.

ونرى لزاماً علينا - في هذا الموقف - أن نسوق بعض ما قُدِّم من قصص عملي واقعي؛ لندرك كيف أنتجت التربية الصادقة نماذج من البشر عَلَّموا الإنسانية من وحي الله ما لم تكن تعلم، وقادوها إلى نور الإيمان وطُهر اليقين.

ما أعظم القصص في القرآن وهو يعرض نماذج متعددة لمن تحسن بهم القُدوة، أو قامت فيهم العِبرة، وإذا كانت التربية الحديثة تعني بتقديم القصص على لسان الطيور والحيوانات. وذلك لا يعدو في مدلولَه أن يكون تنميةً لمعرفةٍ أو سَوْقاً لعبرة سطحية. فإن القرآن الكريم قد سجل أكرمَ وأصدق وأروع ما يمكن أن يؤثر في النفوس ويرشد القلوب والعقول، ويفي بأنواع التربية المختلفة من عقلية وخلقيةٍ واجتماعية.

وإليك قبس من نور هذا القصص العملي في القرآن الكريم ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ [1]

(١) الشُّعَراء : ١٩٢.

مع نملة وهدهد في ملك سليمان ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [1]

أرأيت إلى الحيطة والحذر ؟ أرأيت حسن التدبير ومنطق الحكمة على لسان نملة مما أدهش سليمان نَفْسَه ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ

(١) النمل : ١٧، ١٨.

﴿ٱلْعَظِيمِ ۞ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾[1]

وتمضي القصة تكشف عن صدق الهدهد، ووصول الكتاب، وتبادل الرسائل، وإرسال الهدايا ورَفْضها، وظهور الحق، وتنتهي بهذا الاعتراف الكريم ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾[2]

قصة الراعي اليقظ الذي يتفقد أمر رعيته مع الرعية الواعية التي تنهض وتعمل، وتنطق بالحق مُعْتدَّة، صادرةً عنه. قصة الجندية الواعية المخلصة مع القيادة الأوَّابة الحكيمة التي تزن الأمور وتطلب الدليل ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾[3]

قصة الإيمان المستبصر المستنير وهو يمتد بأصالته فيكشف ويضئ ويهدي ويرشد، وما أجلَّها عَبرة أن آمنت أمةٌ واهتدت على يد هدهد آمن برسالته وأخلص في جنديته.

فأنت ترى أن القرآن الكريم حين يقدِّم هذا القصص إنما يُثير به كوامن النفس ودوافع العزيمة، كما يجرِّد الإرادة للعمل الصالح وهو يسلك بالإنسان أقوم سبيل لتحقيق الرسالة التي خُلق من أجلها.

هدهد يقوم باكتشاف مخالفةٍ لقانون الله في الأرض: (عبادة المخلوق ونسيان

(١) النمل : ١٩-٢٨.
(٢) النمل : من الآية ٤٤.
(٣) النمل : ٢٧.

الخالق) ويقف موقف المعتد بالحق أمام نبي ورسول كان قد توعَّده ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢١ ﴾ (١)

ما أجمل الموقفين. موقف سليمان عليه السلام وهو يتفقد كل شئ في دولته، وموقف الهدهد وهو يعمل مخلصاً في أداء الرسالة. وما أجمل قصص القرآن كلّه وهو يمتزج بفطرة الإنسان فينطلق بها في ميدانها الفسيح في عزم وحزم وثقة، فترى من آيات الله - في النفس وفي الآفاق - ما تتبين معه أنَّ الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل.

وليس المجالُ هُنا مجالَ تفصيل لقصص القرآن وما احتواه من جليل العبرة وخالص الموعظة، وإنما أردنا فقط أن نُشير إلى أوجه التربية الفردية والجماعية التي حَفِل بها القرآن الكريم.

والحق أن كل كلمة فيه - سواء منها ما يتعلق بالعقائد أو العبادات أو المعاملات أو القصص، أو أيِّ شأن من الشئون - إنما هو بابٌ للتربية الإنسانية على أكمل صورة وأقوم سبيل.

فهل يتجهُ المربون - حيث كانوا - إلى القرآن الكريم؛ ليأخذوا منه أُسس التربية الحكيمة، يستضيئوا بنوره في كل شأن دون تقليد لأساليب الغير ووسائله ؟

نحن - بما أنعم الله علينا من كتاب وسُنةَ نملك أسباب التربية للإنسانية جميعاً، بهذا الكتاب الكريم تخلّق خاتمُ الرسل ﷺ وقد أرسله الله رحمةً للعالمين، وعلى نوره وهديه رأين الدنيا خير أمة أُخرجت للناس. ورأت الإنسانيةُ رجالاً كانت أعمالهم في إصلاح الأرض وآمالهم في السماء « **تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ** » (٢)

✿✿✿

(١) النمل : ٢١.

(٢) رواه مالك في الموطأ.

الداعُونَ إلى هُدىً والداعون إلى ضَلالة

يتأثرُ الناسُ بعضُهم ببعض، ويؤثر بعضُهم في سلوكِ بعض، إمَّا بالأسوة الحسنة أو بالقُدوة السيئة. وفيهم الجليسُ الصالح، وفيهم جليسُ السوء.

وللكلمة تأثيرُها وأثرُها في حياةِ الناس. ولها عند الله وزنٌ وتقدير، فهي إمَّا أن ترفع صاحبَها إن كانت من رضوان الله، أو تهوي به إن كانت من سَخَطِ الله.

وكلُّ عملٍ طيبٍ يُقصَدُ به وجْهُ اللهِ يؤتي ثمارَه في حياةِ الناس، وهو في ذاته دعوةٌ صادقةٌ إلى الخَيْر، يَحُثُّ الناس بأسلوبٍ علمي، ويدعوهم إلى صالح العمل بالفعل لا بالقول.

واحترامُ الداعية بالقولِ إلى الله – جَلَّ وَعَلاَ – لا يتمُّ إلاَّ إذَا اقترن بعمل صالح يصدِّقه.

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾[1]

والله – جَلَّ وَعَلاَ – يُحذِّر المؤمنين وينكر عليهم أن يقولُوا قولاً لا يصدِّقه فعل، أو ينسبوا لأنفسهم من الخير ما لم يكونوا قد فعَلُوه، أو يقرِّوا به ولا يفعلوه.

(١) فصلت : ٣٣-٣٥.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾[1]

وقد أنكر الله على أحبار اليهود أن يأمروا الناسَّ بالطاعة والكفِّ عن المعصية ولا يفعلون ذلك ﴿ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٤٤ ﴾[2]

إن الناس يتأثرون بالأعمال وهيَ أدْوَمُ وأبقى.

« ومعلِّم نفْسه ومؤدِّبها أحقُّ بالاحترام من معلِّم الناس ومؤدِّبهم »

وكلُّ عمل فاسدٍ يمتد أثره إلى المجتمع، وتجني الأمةُ التي تُقرُّه أو ترضى به أثره ونتائجه. والعابث في سفينة إنْ أخذ الناسُ على يده نجا ونَجَوْا جميعاً، وإن تركوه هلك وهلكوا جميعاً.

لذا نرى رسول الله ﷺ وقد **كان خُلُقُهُ القُرآن** - يبين أجرَ من سَنَّ سنَّةً حسنة، ووِزْرَ مَن سنَّ سنَّةً سيئة. وعلى الناس أن يدركوا الأثر في الحالين، وأن يروا نتائج هذه وتلك في واقع الحياة العملية والسلوك الإنساني.

روى مسلم عَنْ الْمُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: « كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ، فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ [3] أَوْ الْعَبَاءِ، مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ، بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ، فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنْ الْفَاقَةِ، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِلالاً فَأَذَّنَ وَأَقَامَ، فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ،

---

(١) الصف : ٢، ٣.

(٢) البَقَرَة : الآية ٤٤.

(٣) النِّمارُ جمعُ نَمِرة، وهي كِسَاءٌ من صوفٍ مخطط.

فَقَالَ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ ﴾ [1]، والآية الأخرى التي في آخر الحَشْر ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾[2] تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِه، مِنْ دِرْهَمِه، مِنْ ثَوْبِه، مِنْ صَاعِ بُرِّه، مِنْ صَاعِ تَمْرِه، حَتَّى قَالَ: وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَة. قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ. قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ،حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّه ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِه، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ »[3]

وفي الحديث المتفق عليه عَنْ عَبْدِ اللَّه ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: « لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلاَّ كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا؛ لأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ » [4]

أخي المسلم:

لا يمكن أن ترى حَثًّا على الخير أبلغ من هذا، ولا تنفيراً من الشرِّ أشَدَّ من ذلك « مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنْ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنْ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ

(١) النساء : ١.
(٢) الحَشْر : من الآية ١٨.
(٣) رواه مسلم.
(٤) متفق عليه.

ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا » [1]

أخي المسلم:

إن امتداد الأمة وبقاءَها يتوقف على ما فيها من خصائصَ وصفات. وأسبابُ الحياة أو الهلاك بينةٌ أمام الناس. والله - جَلَّ وَعَلاَ - قد أنزل الهدي الذي يُدْعى إليه وتتوقف سعادة الناس وحياتهم عليه ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ [2]، ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٢٣ ﴾ [3]

فكل دعوة إليه - بعلم أو عمل - دعوةٌ إلى الخير، وعلى قدر استجابة الناس أو إعراضهم يكون شأنهم ومصيرُهم ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٢٧ ﴾ [4]

اللهم اجعل هوانا تَبَعاً لما جاء به سيدُنا محمد ﷺ.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) البقرة : ١، ٢.

(٣) الزمر : ٢٣.

(٤) طه : ١٢٣-١٢٧.